للمقاومة وامتدادات عربية لها ، مما اثقل الحمل على كاهلها ، فعجزت عن السير بخطى ثابتة كالسابق وعجزت عن اعادة صياغة نفسها (تركيبها الطبقي — علاقاتها التنظيمية — خطها السياسي قياداتها — ايديولوجيتها) في تلك الظروف القاسية والطاغية على المنطقة العربية ، حيث تراكمت المسؤوليات على فصائل المقاومة ، وتراكمت عليها المهام ، وبالتالي أدت الى تراكم الاخطاء ، التي لا يمكن الا ان تقع بها اي ثورة وحتى اي مشروع ثورة ، لدراسة نفسها من جديد واعادة نفسها من جديد دون تكرار الاخطاء ، وذلك باستعادة دراستها للتجارب الثورية في العالم وتجربتها هي في الدرجة الاولى ، لتحديد مسيرتها الجديدة في ضوء تلك التجارب وتجربتها ، وعلى ضوء الاخطاء العامة واخطائها الخاصة ، فلا تكون تلك الاستعادة تكرارا للاخطاء ، بل استعادة حقيقية لحجم المقاومة الحقيقي .

النقاط الرئيسية في كتاب العظم

قلنا بان العظم انتقد ذاتية المقاومة ، بمعنى انه انتقد العوامل المكونة للمقاومة من الداخل ، قياداتها ، منظماتها ، ايديولوجيتها وخطها السياسي ، ولم يتطرق الا فيما ندر الى الاوضاع العربية والفلسطينية العامة والخاصة التي رافقت نشأة المقاومة والواقع المتحرك الذي انبثقت منه وتحركت من ضمنه ، والقوى السياسية العالمية وتوازن تلك القوى في ميزان الصراع العالمي ما بين المعسكرين الاشتراكي والامبريالي وشراسة الهجمة الصهيونية والرجعية التي واجهتها ساعة الاعلان عن نفسها . ولذلك بقيت دراسة العظم مجرد حوار نقدي مع القيادات ، مع « دماغ » المقاومة لا جسمها ، فوقع في نفس الخطأ الذي سقط فيه ما يسمى بيسار المقاومة الذي خاض نقاشا نظريا مع فتح ولم يحاول ان يتعاطى معها الا في مجال المجادلات النظرية والسجالات السياسية ، التي بقيت تدور في فلك المقاومة وبالضبط بقيت تحلق فوق « زعماء » فتح دون ان تخترق جسمها ، وتتحول القضايا التي طرحها يسار المقاومة الى قضايا جدية وعملية يدور الصراع حولها في قواعد فتح ومختلف كوادرها .

ونأتي هنا الى النقطة الاولى في دراسة العظم ، وهي تتلخص : « ان اي تقييم لهذه المرحلة من الكفاح الفلسطيني لا بد ان ينصب بصورة رئيسية على فتح باعتبارها اهم منظمات العمل الفدائي واكبرها ، وتشكيلها بالتالي العمود الفقري لحركة المقاومة . بعبارة اخرى فتح هي التي حددت — بحكم موقعها ووزنها وحجمها على اقل تعديل — الطبيعة التي اتصف بها الكفاح الفلسطيني المسلح وسماته الغالبة ، بالاضافة الى ايقاعه واتجاه حركته . يبدو لي واضحا كل الوضوح ان استراتيجية فتح وبرامجها وتصوراتها الايديولوجية وممارساتها قد طبعت المرحلة المذكورة بطابعها الخاص واعطتها اتجاهها العام ولونها السياسي الغالب » (ص ١٢) .

والجواب على السؤال المطروح عن سبب تمثيل فتح لمثل هذا الحجم الجماهيري والوزن السياسي، في الوقت الذي كان يسار المقاومة يطرح نفسه كبديل سياسي — مسلح عن فتح ويحاول باستمرار ان يأخذ مكانها ولو بصورة ذاتية لا موضوعية ، ارتكز في الغالب على النظريات اكثر من الممارسات والاقوال اكثر من الافعال . وفي الوقت الذي كان يسار المقاومة يشكل ظاهريا « نصف » المقاومة وخاصة بالنسبة لما يتعلق بخطه السياسي المطروح الذي كانت اغلبية الفئات الاجتماعية المهتمةبالمقاومة على اطلاع عليه ومأخوذة به . على هذه النقطة لا يجيب العظم بشكل صريح،وخاصة انه كان مع يسار المقاومة بعد هزيمة ٥ حزيران ، حيث استطاعت فتح ان تنجح عمليا في الوقت الذي فشل يسار المقاومة ان يحقق طموحه بتمثيل اوسع الفئات الاجتماعية الفلسطينية والعربية التي كانت تمثلها فتح بالذات . اي ان ازمة يسار المقاومة انه كان يشكل نظريا — اعلاميا « نصف » المقاومة ، بينما كانت الساحة على الصعيد العملي مفتوحة لفتح ، ولاستراتيجية فتح وتكتيكاتها وخطها السياسي ، بسبب عملها المسلح الذي « عوض » عن فقدانها للنظرية الثورية ، واستقطب بالتالي أوسع الفئات الاجتماعية لصالح فتح . مما دفع بعض فصائل يسار المقاومة ، للاندفاع في عمليات « عسكرية » لا تخدم في النهاية استراتيجية المقاومة الفلسطينية، ولا تحقق وظيفتها السياسية على صعيد التحرير ام على صعيد تأليب القوى الطبقية والوطنية ضد الانظمة في الساحة العربية ، وبالتالي ساهم هذا الوضع فيما بعد في تقصير مسافة الافتراق ما بين فتح ويسار المقاومة وفي تمييع التمايز المفترض بين خطي المقاومة ، اليسار وفتح . اذ كانت الجماهير الفلسطينية والعربية لا ترى فرقا ساطعا لحدة